هكذا تكلَّمَت القصيدة!

. طراد الكبيسي * .

ـ ١ ـ

يَصحُّ أَنْ تمطرني القصيدهْ / أَقولُ: يا مطراً يمطرُ القصيدهْ، / إِجعلْ لنا بَحْراً تَسْتَحمُّ به القصيدهْ. / كأُنثى. / تَقُدُّ من دُبُرٍ قميصَ كلِّ مَنْ لا يأتَمِرُ بأَمْرِ القصيده!

ـ ٢ ـ

يصحُّ أَنْ تَحْزَنَ القصيدهْ. / تبكي قتيلاً كلَّ ثانيةٍ برصاصِ الأَمريكانْ، وَمنْ تَبعهُمْ من إِرهابيِّينَ وأَعْوَانْ. /

ـ ٣ ـ

يصحُّ إِنْ نادت القصيدة: يا قومُ: إِنِّي أَرى شَجَراً يمشي قادماً إِليكم. / ولاتظنُّوا هذه نُكْتةً بليدهْ. /

وليلةَ سَخرَ القومُ من قولها، / أَضْحُوا والبرابرةُ في كلِّ بيتٍ وحارةٍ ومدينهْ!

ـ ٤ ـ

يصحُّ أَنْ تَغْضَبَ وتَبْعُدَ عني القصيده. / فقَدْ أَوْقَدْتُ ناراً اتَّسَعَتْ وأَحرقَتْ أَنهاراً وجبالاً وأَعشاشَ طيور البراري والنوارس والعصافير الوليده!

ـ ٥ ـ

يصحُّ أَنْ تَبْصُقَ القصيده / في وَجْهِ هولاكو العَصْرِ والصهيونيِّ العقيدة / وأنْ تقذفَهُ بالحذاءْ. / لكنَّها لو فعلتْ لشكا الحذاءُ مُعاتبًا: «ما ذَنْبي أنا ترمونني في هذه الزبالة الفريدة!!»

ـ ٦ ـ

يصحُّ أَنْ يكونَ للقصيده: / جيشٌ من طيرٍ أبابيلَ تَعْبرُ المحيطات، / ترمي بالجَمَراتِ زنادقةَ العَصْرِ ممَّنْ جعلوا حياةَ الخَلْقِ عُتْمَةً جديده!

ـ ٧ ـ

يصحُّ أَنْ تَلِدَ هذي القصيدةُ قصيدهْ. / فتقولُ الطفلةُ القصيدة: ماما أُريدُ أَن أكتبَ قصيدهْ. /

تقول الأُمُّ: تمهَّلي. لَّما تَزَلْ أمامكِ دروبٌ مديدهْ. / لكنَّ الطفلةَ القصيدةَ تقولُ: «لكنّي أحسُّ أَنّي حاملٌ وأَنّي في انتظار ولادة القصيده.» / تلدُ الطفلةُ القصيدةُ الطفلةَ القصيده. / ثُمَّ تتوالى الولاداتُ فتصيرُ قبيلةً جديدة / اسمُها: مُتناصَّاتُ القصيده.

ـ ٨ ـ

قالتْ القصيدة: مرّةً رأيْتُني عصفورةً. / أسكنُ عشًّا بأعلى غُصْنٍ من أَعلى شجرة في الغابة. / أرى الناسَ في أَعالي الجبال. / أرى ما يطبخونَ ويأكلون، / وكيف يتزوَّجُونَ ويتطلَّقُونْ. / أرى كيف كانوا ثعالبَ أو قِردةً أو سحالي وكيف تحوّلوا إِلى بَشَرْ. / لكنّهم في باطنهم لا يتغيَّرون!

---

* ـ شاعر من العراق.

ـ ٩ ـ

مرَّةً وجدتُ القصيدةَ تختبئُ في دولابِ ملابس. / قلتُ: «لماذا تتخفّين؟ / قالتْ: «لأني عارية: قصيدة عارية. / قصيدة من **قصائد عارية** لصاحبكَ: حسين مردان.»

ـ ١٠ ـ

ومرَّةً وجدتُها تَعْجَزُ ـ أَوْ ترفضُ ـ أَنْ تنطقَ عَمَّا في باطنها. / سألتُها. / قالتْ: القصيدةُ في شيءٍ من غموضها. / وإباحتها الفُرْصةَ للقارئ لأنْ يتأوَّلها ـ بهذه الطريقة فقط تتعدَّدُ القراءاتْ. / وتتكاثرُ الدلالاتْ.

ـ ١١ ـ

قالتْ: أنا اسمي قصيده. / خرجتُ لزيارة صديقة: قصيده. / قالتْ: وجْهَتُكِ إلى أَيْن؟ / قلتُ: أَزورُ صديقتي القصيده. / قالتْ: إرجعي. لقَدْ هَجَّرُوها إلى ديارٍ بعيده!

ـ ١٢ ـ

ومرَّةً سألتُ القصيدةَ أَنْ تُحدِّثني عن بعض أصدقائها من رُوّاد القصيدة. قالت:

• مرَّةً جاءني: ت.س. إليوت، يَلْهَثُ مُتْعَبًا، يسألُ عمَّنْ يُمكنه أَنْ يُعمِّرَ الأَرضَ الخراب! / قلتُ: كلُّ الأرض أرضٌ خراب! / قال: والحلُّ؟ / قلتُ: أنْ يَعُودا مُلْتصقين. كما كانا في البدْءِ: قبل أَنْ ينفصلا: أَرضٌ وسماء.

• قلتُ: كفافي؟ قالتْ: لمّا يزلْ في الإسكندريّة: في انتظار البرابرة!

لكنَّ البرابرة لم ينزلوا مصرَ. نزلوا العراقْ: قتلوا خَلْقًا كثيرًا: سَبُوا العِبادْ. / دمَّروا البلادْ. / وأكثَروا فيها الفسادْ. / وسرقوا ما تيسَّرَ من نَفْطٍ ومالٍ وزادْ. / وأَخيراً قالوا: نَخْرجُ بغير ميعادْ!...

• لوركا؟ قالتْ: طفلُ غرناطة. / وصاحبُ الغَجَرْ / طيرٌ أخضرْ. / يمرحُ في مرجٍ أَخضرْ. / ومثلَ غزالٍ طائشٍ يبحثُ عن غرناطةَ في غرناطه. / ومع هذا فقد كان حزينًا. / لا يشبهُ حُزْنُه إلاّ حُزْنَ الغَجَرْ!

«آه! يا حُزْنَ الغَجَرْ!

حُزْنٌ نقيٌّ ووحيدْ!

آه! يا حُزْنًا سريعَ المَنْبعِ

وفجرُهُ بعيدْ!»

ويومَ اغتاله الحرسُ الأسودُ، جرى دَمُهُ أَخْضَرْ!

• البيّاتي: كان حاضرًا في المقاهي: من المقاهي البرازيليّة في شارع الرشيد في بغداد، إلى مقهى ريش في القاهرة. / ومن مقهى الفينيق في عمَّان إلى المقهى في باب توما في دمشق. / ومن جَبَل التَّوْبَاد إلى جَبَل قاسيون يُواصلُ مَوْتَه. / ويواصل بحثه عن تلك التي التقاها مرَّةً في **بستان الحُبّ**. /

في البدءِ كانت عائشةُ في بستانها على «الخابور» / لكنّها انتهت في مُدُنِ الشرق إلى «جاريةٍ

تُباع في الأسواق».

لكنّها، وبعد أنْ أَحبَّها الساحرُ والشاعرُ والمحاربُ، وقدَّم لها قرباناً، وبنى مسلَّة، نهضتْ عائشةُ من موتها:

«وعادتْ إلى بلادها البعيده

فَلْتَبْكِها القصيده

والريحُ والرمادُ واليمامهْ

ولْتَبْكِها الغمامهْ

وكاهنُ المَعْبدِ والنجومُ والفراتْ.»

● السيَّاب؟ قالتْ: أَتَذْكُرُ في مهرجان السيَّاب، يومَ أَخذونا إلى جيكور؟/ دخلْنا منزلَ آل السيَّاب./ لم يكنْ الوقتُ شتاءً، ولا وَقْتَ مَطَرْ./ لكنَّا فُوجِئْنَا بمطرٍ غزيرٍ يَعْزِفُ «أنشودةَ المطر»./ سألْتُ: لماذا تمطرُ يا مَطَرْ؟ قال:

«أَتعْلمينَ أَيَّ حُزْنٍ يَبْعثُ المطَرْ؟

وكيف تَنْشُج المزاريبُ إذا انْهَمَرْ؟

وكيف يَشْعرُ الوحيدُ فيه بالضياعْ؟

بلا انتهاءٍ ـ كالدمِ المُراقِ، كالجياعْ

كالحُبِّ، كالأَطفال، كَالموتى ـ هو المَطَرْ.»

قالَتْ:

«أَنْتَ هذا المَطَرْ!»

● صلاح عبد الصبور؟: كان صلاح عبد الصبور رجلاً حييّاً ـ كما رأَيْتَ ذلكَ يومَ لقيته في بغداد.. شاعرٌ حسَّاس جداً وصادقٌ في علاقاته بالآخرين. ويمكن القولُ أيضاً إنّه كان رائدَ الشعر الحديث في مصر على المستويين: كتابة الشعر، وتأصيل مفهوم الحداثة لهذا الشعر. كما يُؤْثَرُ عنه أنّه ميَّالٌ ومُبرِّزٌ في كتابة ما عُرِفَ آنذاكَ بالقصّة الشعريّة. وفي المقدّمة من نماذجه: «شنقُ زهران» التي تأثَّر بها عددٌ غيرُ قليل من الشعراء. وهكذا في أَغلب شعرِه ينحو هذا المنحى القصصي. وقد رحلَ عبدُ الصبور وهو يقصُّ مَوْتَهُ ذاتَ شتاء:

«يُنبئُني شتاءُ هذا العام أَنّني أَموتُ وحدي

ذاتَ شتاءٍ مثله، ذاتَ شتاء،

يُنبئني هذا المساءُ أنَّني أموتُ وحدي

ذات مساءٍ مثله، ذاتَ مساءْ،

وأَنَّ أَعوامي التي مَضَتْ كانتْ هَباءْ

وأَنَّني أقيمُ في العراءْ.»

عمّان